تفسير سورة الحج

كاملة

رامي حنفي محمود

شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا الكتاب منشور في

سلسلة كيف نفهم القرآن؟ ١

تفسير سورة الحج كاملة

١. الربع الأول من سورة الحج

– الآية ١: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي احذروا عقابَ ربكم، فـ ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ أي زلزلة الأرض عند مَجيء الساعةِ ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا يَعلم قَدْره إلا رب العالمين.

– الآية ٢: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ يعني يوم ترون قيام الساعة: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي تَنسى رَضيعها بسبب الكرب الذي نزل بها، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾: أي تُسْقِط الحامل حَمْلها من الرعب، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ أي غابت عقولهم، فيكونوا كالسُكارَى من شدة الهول والخوف، ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ من الخمر، ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ أي: ولكنّ أهوال القيامة – كالحَرّ الشديد وشِدّة الرُعب – قد أفقدتهم عقولهم وإدراكهم.

– الآية ٣، والآية ٤: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: ومِن الكفار ﴿مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي يُجادلون ويُشَكِّكون في قدرة الله على البعث ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي جهلاً منهم بحقيقة هذه القدرة، ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ هؤلاء الكفار ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾: أي يَتَّبعون كل شيطان متمرد على أوامر الله تعالى، وهذا الشيطان قد ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾: أي قضى الله على ذلك الشيطان بأنه يُضِل كل مَن اتَّبعه ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾: أي يَسوقه إلى عذاب جهنم الموقدة.

– الآية ٥: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي في شَكٍّ ﴿مِنَ الْبَعْثِ﴾ بعد الموت، فإليكم ما يُزيل شَكَّكم ويَقطع حِيرتكم: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾: أي فاعلموا أننا قد خلقنا أباكم آدم من تراب، ثم تناسلت ذريته مِن نطفة (وهي ماء الرَجُل)، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي: ثم يَتحول هذا المَنِيّ بقدرة الله إلى عَلَقة (وهي قطعة من الدم الغليظ متعلقة بالرَحِم)، ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي: ثم تتحول هذه العَلَقة بقدرة الله إلى مُضغة (وهي قطعة لحم صغيرة قَدْر التي تُمْضَغ)، فتكون أحياناً مُخَلَّقة (أي تامة الخَلق تنتهي إلى خروج الجنين حيًا)، وأحياناً تكون غير تامة الخَلق (فتَسقط من الرَحِم)، كل ذلك بأمر الله تعالى ومشيئته.

♦ وقد أخبرناكم بكل هذا ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ تمام قدرتنا على الخَلق، ولتعلموا أن الذي ابتدأ خَلْقكم بهذه الصورة قادرٌ على إعادتكم بعد الموت، بل إنَّ إعادة الخَلق أهْوَنُ عليه سبحانه (لأنّ إعادة الشيء كما كان، أسهل من إيجاده أول مرة)، ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني إننا نُبقِي الجنين في الأرحام – المدة التي نشاؤها – إلى وقت ولادته (فمنهم مَن يُولد قبل تسعة أشهر، ومنهم مَن يُولد بعد ذلك)، ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ أي أطفالاً صغارًا ﴿ثُمَّ﴾ نُنَمِّيكم ونُرَبِّيكم ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ (وهو وقت الشباب والقوة واكتمال العقل).

---

1 وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي "، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبي بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ يعني: وبعض الأطفال يموتون قبل الوصول لفترة الشباب، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ يعني: وبعضهم يَكبر حتى يَبلغ أردأ العُمر (وهو سِن الهِرَم)، حيثُ يَفقد الإنسان ما كانَ له مِن قوةٍ وعقل ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾: أي حتى يَصير لا يَعلم شيئًا مِمَّا كانَ يَعلمه (مِثلما كانَ في طفولته)، (واعلم أنّ اللام التي في قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ﴾ تسمى: (لام العاقبة) أي ليَصير الإنسان إلى هذه الحالة).

♦ ثم ذَكَرَ سبحانه دليلاً آخر على قدرته على الإحياء فقال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي يابسةً مَيِّتة لا نباتَ فيها ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ تراها قد ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أي تحركت وتشققت ليَخرج منها النبات، ﴿وَرَبَتْ﴾ أي ارتفعت وزادت لارتوائها بالماء ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾: أي أخرجتْ من كل نوع من أنواع النبات الحَسَن الذي يَسرُّ الناظرين.

– الآية ٦، والآية ٧: ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك المذكور مِن آيات قدرة الله تعالى، فيه دلالة قاطعة ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي الذي يَستحق العبادة وحده ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ – التي تقوم فيها القيامة – ﴿آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي لا شك في مَجيئها، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي يَبعث الموتى مِن قبورهم لحسابهم وجزائهم.

– الآية ٨، والآية ٩، والآية ١٠: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: ومِن الكفار ﴿مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي يُجادلون في توحيد الله تعالى واختياره لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم مِن بينهم، وجدالهم هذا يكون ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي جهلاً منهم بحكمة الله تعالى في اختياره، ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: يُجادلون مِن غير وَحْيٍ مِن الله تعالى، ومِن غير عقلٍ رَشيد، ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي: يُجادلون مِن غير الاستناد إلى كتاب سماوي مُنير (يعني فيه نورٌ يَكشف الظُلُمات، بِبَيَان الحُجَج وكَشْف الحقائق)، فليس لهذا المُجادل حُجَّة عقلية، ولا حُجَّة مكتوبة في كتابٍ سابق، وإنما هي وساوس من الشيطان يُلقيها إليه ليُجادلكم بها.

♦ وهذا المُجادل يكونُ ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾: أي لاويًا عُنُقه، مُعرِضًا عن الحق في تَكَبُّر، فليس جِداله لطلب الهدى، بل ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ليَصُدّ غيره عن الدخول في دين الله تعالى، فلذلك تَوَعَّده الله بأنّ ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾: أي له ذلٌ ومَهانة في الدنيا بافتضاح أمْره ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (في نار جهنم)، ويُقال له وهو يُعَذَّب فيها: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي بسبب ما فَعَلتَه من الشرك والمعاصي، وليس بظلمٍ مِن الله تعالى، لأنّ اللهَ هو الحَكَمُ العدل ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فلا يَظلم سبحانه أحدًا مِن خَلْقه مِثقال ذرة، وذلك لغِناه تعالى وكمال قدرته).

– الآية ١١، والآية ١٢، والآية ١٣: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أي يَدخل في الإسلام على ضَعفٍ وشكٍّ، فيَعبد الله على تردد، ويَربط إيمانه بدُنياه: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ يعني: فإنْ عاشَ في صحةٍ وسَعَة رِزق: استمرّ على عبادته، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ يعني: وإنْ حصل له ابتلاءٌ وشِدّة: رَجَعَ عن دينه وتوبته، وبذلك يكون قد ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا﴾ إذ لا يستطيع أن يُغيِّر ما قُدِّر له فيها، ﴿وَالْآخِرَةَ﴾ خَسِرَها أيضاً بدخوله النار، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي ذلك هو الخُسران الواضح.

♦ وذلك الخاسر ﴿يَدْعُو﴾ أي يَعبد ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ إذا تَرَكَ عبادته ﴿وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ إذا عَبَده، ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن الحق، وتراهُ ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾: أي يَدعو مَن ضَرَرُه يوم القيامة أقرب إليه مِن نَفْعه (لأنه سيَدخل النار بسبب عبادته له، ولن يَدفع عنه شيئًا من العذاب، بعدَ أنْ ظَنّ أنه سيَشفع له عند ربه)، ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾: أي قَبُحَ ذلك المعبود العاجز الذي اتخذوه نصيرًا مِن دون الله تعالى، ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي: وقَبُحَ ذلك المُعاشِر والصاحب المُلازم، الذي يَضُرّ مَن التزمه وعَكَفَ على عبادته.

- الآية ١٤: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي آمَنوا بالله ورسوله وبكل ما أخبر به رسوله من الغيب ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهي الفرائض والنوافل وأفعال الخير (فأدَّوْها بإخلاصٍ لله تعالى وعلى النحو الذي شرَعه)، أولئك يُدخلهم اللهُ ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (ومِن ذلك ثواب أهل طاعته، وعقاب أهل معصيته).

- الآية ١٥: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ يعني: مَن كان يعتقد أنّ الله لن يَنصر رسوله محمدًا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ (بإظهار دينه والنصر على أعدائه)، ﴿وَ﴾ في ﴿الْآَخِرَةِ﴾ (بإعلاء درجته وعذابِ مَن كَذَّبه): ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾: أي فلْيَمدُدْ بحبلٍ إلى سقف بيته (لأنّ العَرَب كانت تُسَمِّي كل ما يَعلُوها: سماء)، ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ ذلك الحبل بعد أن يَختنق به نفسه، ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ أي فليَتفكر: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾؟ يعني هل ذلك الفِعل سوف يُذهِب ما في نفسه من الغيظ على النبي محمد؟ (والجواب: لا)، فإن الله تعالى ناصرٌ رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم لا مَحالة، (ولَعَلّ الله تعالى قد وَصَفَ هذا الفِعل بالكيد، على سبيل الاستهزاء بهذا الكافر، لأنه لم يَكِد به إلا نفسه، واللهُ أعلم).

♦ وقد قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ أي فليَصعد بحبلٍ إلى السماء، حتى يَصِل به إلى الأبواب التي يترل منها النصر فيَسُدَّها - وذلك على سبيل الفرض والتعجيز - فإنّ هذا لن يَمنع نَصْرَ الله لرسوله محمد.

- الآية ١٦: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعني: وكما وَضَّح اللهُ لعباده أدلة قدرته على البَعث، فكذلك أنزل هذا القرآن، وجعل آياته واضحة في ألفاظها ومَعانيها، تَحمل الهدى والخير، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ بهذه الآيات ﴿مَنْ يُرِيدُ﴾ هدايته (وذلك بأن يوفقه سبحانه للتفكر فيها، فيَعرف الحق، فيؤمن به، ويَعمل بما فيه من شرائع وأحكام).

- الآية ١٧: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ (وهم المسلمون الذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم)، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ (وهم اليهود)، ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ (والراجح أهم قومٌ باقون على فِطرقم (أي على التوحيد) وليس لهم شَرْعٌ مُعَيّن يَتّبعونه)، ﴿وَالنَّصَارَى﴾ (وهم عَبَدة الصليب)، ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ (وهم عَبَدَة النار)، ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (وهم عَبَدَة الأصنام)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يَحكم بين هؤلاء جميعًا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (فيُدخل المؤمنين الجنة، ويُدخل الكافرين النار)، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (إذ شَهِدَ سبحانه على أعمال عباده في الدنيا، وسيُجازيهم بها في الآخرة).

- الآية ١٨: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني ألم تعلم أيها الرسول ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ - من الملائكة - ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ مِن سائر المخلوقات ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ﴾ (كل هؤلاء يسجدون له ويخضعون لأمره) ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ (وهي جميع الحيوانات) ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ وهم المؤمنون الذين يسجدون لله تعالى طاعةً واختيارًا، ﴿وَكَثِيرٌ﴾ من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي وَجَبَ عليه العذاب المُهين - بسبب جحوده وضلاله - ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ يعني: وأيُّ إنسان يُهنه الله ويُعَذِّبه، فلا يستطيع أحد أن يُكرمه ويُسعِده ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ فمَن شاء أهانه (بعدله وحكمته)، ومَن شاء أكرمه (بفضله ورحمته)، إذ أفعاله سبحانه تدور بين العدل والفضل والحكمة.

♦ وعلى الرغم مِن أن الشمس والقمر والنجوم تَدخل ضِمن قوله تعالى: ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ إلا إنه سبحانه قد أفرَدَها بالذِكر لشُهرها، ولأنّ هناك مَن كان يَعبد هذه الكواكب، (وهذا ما يُعرَف بعطف الخاص على العام)، وكذلك الحال في قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾، فإنها معطوفة - عطفاً خاصاً - على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾.

****

٢. الربع الثاني من سورة الحج

– من الآية ١٩ إلى الآية ٢٤: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾: أي هذان فريقان ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾: أي اختلفوا في توحيد ربهم (وهم أهل الإيمان وأهل الكفر)، ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد ربهم ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾: أي يُحيط بهم العذاب في هيئة ثياب مُفَصَّلة من نار، يَلْبَسونها فتَشوي أجسادهم، و ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أي يُصَبُّ على رؤوسهم الماء الساخن، فيُحدِث ثُقباً في رؤوسهم – بسبب شدة غليانه – ثم يَنزِل مِن خلال هذا الثُقب إلى بطونهم، فـ ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾: أي يُذيب أمعاءهم وجلودهم فتَسقط مِن شدة الحرارة، ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ أي تَضربهم الملائكة على رؤوسهم بمطارق من حديد، و﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾: أي كلما حاولوا الخروج من النار – لشدة غمِّهم وكَرْبهم – ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي تُجبرهم ملائكة العذاب على العودة إليها ﴿وَ﴾ يقولون لهم – توبيخاً – وهم يُعَذَّبون: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

♦ وأما أهل التوحيد فقد قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ أي بساتين عجيبة المنظر ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري أنهار الماء واللبن والعسل والخمر من تحت أشجارها، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾: أي يَتزيَّنون فيها بأساور من ذهب وأساور من لؤلؤ ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: أي لباسهم المعتاد في الجنة – رجالاً ونساءً – هو الحرير، ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعني: لقد هداهم الله في الدنيا إلى القول الطيب (وهو قول كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، وسائر الأذكار المشروعة، وكل كلام طيب)، ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾: أي كما وفقهم سبحانه إلى الثبات على الإسلام، الذي هو طريق الله الحميد (ومعنى الحميد: أي الذي يَستحق الحمد والثناء في كل حال، لِكَثرة نعَمِه على جميع مخلوقاته، ومعنى أن الإسلام هو طريق الله، أي هو الذي يُوصل إلى رضاه وجَنَّته).

– الآية ٢٥: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بوحدانية الله تعالى، وكَذَّبوا بما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ويَمنعون غيرهم من الدخول في دين الله، ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: ويَصُدّون الرسول والمؤمنين – في عام "الحُدَيبية" – عن دخول المسجد الحرام ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً﴾ أي الذي جعلناه مكان تَعَبُّد لجميع المؤمنين على سواء: ﴿الْعَاكِفُ فِيهِ﴾ أي سواء الذي جاء إلى مكة ثم أقام فيها للتعبد في المسجد الحرام، ﴿وَالْبَادِ﴾ أي: وكذلك القادم إليه للعبادة ثم خرج منه، (وقد يكون المقصود بالعاكف فيه: أي الساكن بمكة، فهؤلاء يتساوون مع غيرهم في ثواب العبادة في المسجد الحرام).

♦ وهؤلاء الكفار – الذين يَمنعون الناس عن دخوله – لهم عذاب أليمٌ في الآخرة، ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ يعني: ومَن يُرِد المَيْل عن الحق في المسجد الحرام – وذلك بأن يَظلم نفسه (بارتكاب شِرك أو معصية)، أو يَظلم غيره – فهذا ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، (فمُجَرَّد إرادة الظلم في الحَرَم تستوجب العذاب، فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم، وهو الشرك بالله تعالى ومَنْع الناس من زيارته؟!) (وفي هذه الآية وجوب احترام الحَرَم وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه أو فِعلها).

– الآية ٢٦، والآية ٢٧، والآية ٢٨: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي اذكر أيها الرسول لكفار قريش – المُنتسبين إلى إبراهيم كَذِباً وباطلاً – حين أنزلنا إبراهيم بمكة وبَيَّنّا له مكان البيت (لأنّ مكانه كان غير معروف)، وأمَرنا إبراهيم ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ في عبادتي، ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ أي طَهِّر المسجد الحرام من الشِرك والنجاسات، (وذلك من أجل الطائفين به) ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ عنده – وهم المعتكفون فيه – ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (وذلك حتى لا يَتأذّوا بأيّ أذى مادي أو معنوي وهم في بيت ربهم).

♦ فاذكر هذا لقومك الذين نَصَبوا الأصنام والتماثيل حول البيت، وحارَبوا كل مَن يقول لا إله إلا الله، ومنعوك وأصحابك عن المسجد الحرام، فأين ذهبتْ عقولهم عندما يَزعمون أنهم على دين إبراهيم وقد كان مُوَحِّداً وهم مُشركون؟!

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾: أي بَلِّغ الناس يا إبراهيم أنّ الحج واجبٌ عليهم، وأعلِن ذلك لهم بأعلى صوتك، فحينئذٍ ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي مُشاةً على أرجلهم ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: وسيأتوك رُكبانًا على كل ضامر من الإبل (وهي الناقة خفيفة اللحم مِن كثرة السَّيْر والأعمال، لا من الضَعف والهُزال)، ﴿يَأْتِينَ﴾ أي تأتي هذه النِياق وهي تَحمل راكبيها ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: أي مِن كل طريق بعيد ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾: أي ليَحضروا منافع لهم (مِن مغفرة ذنوبهم، وثواب حَجِّهم وطاعتهم، واستجابة دعائهم والفوز برضا ربهم، وبالربح في تجاراتهم أثناء الحج) ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعني: وليذكروا اسم الله على ذَبْح ما يَتقربون به من الإبل والبقر والغنم في أيام مُعَيَّنة، وهي اليوم العاشر مِن ذي الحجة وثلاثة أيام بعده – على الراجح – شُكرًا لله على نعمه، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي كلوا من هذه الذبائح أيها الحَجيج ﴿وَأَطْعِمُوا﴾ منها ﴿الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (وهو الفقير الذي اشتد فقره).

– الآية ٢٩: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي: ثم لْيُكمِل الحَجيج ما تَبَقَّى لهم من النُّسُك (وذلك بأن يَتحلَّلوا مِن إحرامهم بحَلق شعر الرأس أو تقصيره)، وكذلك يَقصون أظفارهم ويُزيلون ما تراكم مِن الأوساخ في أجسادهم طوال فترة الإحرام، ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ يعني: وعليهم أن يُوفوا بما أوجبوه على أنفسهم من الذبائح لله تعالى ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي: وليَطوفوا – بعد النحر – طواف الإفاضة بالبيت القديم، الذي أعتقه الله مِن تَسَلُّط الجبارين عليه، وهو الكعبة.

– الآية ٣٠: ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك الذي ذكَرناه مِن إكمال النُّسُك والوفاء بالنذور والطواف بالبيت، هو مِمّا أوْجَبَه اللهُ عليكم فعَظِّموه ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: ومَن يَجتنب ما حَرَّم اللهُ انتهاكه: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ يوم يَلقاه.

♦ ولَمّا ذَكَرَ سبحانه الأنعام في الآيات السابقة، أتْبَعَ ذلك بإبطال ما حَرَّمَه المشركون على أنفسهم منها، فقال: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾ يعني: وقد أحَلَّ الله لكم أَكْلَ الأنعام (من الإبل والبقر والغنم) ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يعني إلا ما حَرَّمه سبحانه عليكم في القرآن (مِن المَيْتة وغيرها).

♦ ولَمّا حَثَّ سبحانه على تعظيم حُرُماته، أتْبَعَ ذلك بالأمر باجتناب أعظم الحرام (وهو الشِرك)، فقال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ أي ابتعِدوا عن القذارة (التي هي الأصنام)، ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي: وابتعِدوا عن الكذب (الذي هو الافتراء على الله تعالى)، كتحليل وتحريم ما لم يَأذن به، وإنساب الولد والشريك إليه.

– الآية ٣١: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ أي كونوا مُستقيمين لله تعالى (بطاعته وإخلاص العمل له)، وعبادته وحده ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي فمَثَلُ هذا المُشرك – في بُعْده عن الهدى، وسقوطه من الإيمان إلى الكفر، وتَخَطُّف الشياطين له من كل جانب – كمثل مَن سقط من السماء ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ فتُقَطِّع أعضاءه، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾: يعني أو تأخذه عاصفة شديدة، فتقذفه في مكان بعيد، لا يُعثَر عليه أبداً.

– الآية ٣٢، والآية ٣٣: ﴿ذَلِكَ﴾ أي توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له، هو مِمّا فرضه الله عليكم وأمَركم به فعَظِّموه ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ يعني: ومَن يَمتثل أوامر الله تعالى ويُعَظِّم مَعالم دينه (والمقصود بها هنا: اختيار أفضل الذبائح) ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾: أي فهذا التعظيم يَصدر من أصحاب القلوب التي تتقي الله وتخشاه، ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي لكم في

هذه الذبائح ﴿مَنَافِعُ﴾ تنتفعون بها – من الصوف واللبن والركوب – وغير ذلك من المنافع التي لا تَضُرّها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني إلى أن يأتي وقت ذَبْحها، ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ يعني: ثم تذهبون بهذه الذبائح إلى مكان ذَبْحها (وهو الحرم كله).

– الآية ٣٤، والآية ٣٥: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ يعني: ولكل جماعةٍ مؤمنة– من الأمم السابقة – جعلنا لها مَناسك مِنَ الذبح يَتقربون بها إلى الله تعالى ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي ليذكروا اسم الله وحده عند ذبح ما رَزَقهم مِن هذه الأنعام، وذلك بأن يقولوا عند الذبح: (بسم الله والله أكبر)، شُكراً لله على نعمه.

♦ وإنْ اختلفتْ الشرائع، فكلها متفقة على أصل واحد، وهو إفراد الله وحده بالعبادة، وتَرْك الشرك به، فلذلك قال تعالى: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وهو الله الأحد الصمد ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي انقادوا لأمْره ظاهراً وباطناً ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ أي المتواضعينَ الخاشعينَ الخاضعينَ لأمر ربهم، فهؤلاء بَشِّرهم أيها الرسول بخيرَي الدنيا والآخرة، وهُم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت قلوبهم مِن عقابه، وبالتالي خافت أن تعصاه، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ مِن بلاءٍ وشدة، مُحتسبين الأجر عند ربهم في الآخرة، فلا يَجزعون ولا يَتسَخَّطون ولكنهم يقولون: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ – في أوقاتها بخشوعٍ واطمئنان –، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ – مِن أنواع المال – ﴿يُنْفِقُونَ﴾: أي يُخرِجون صَدَقة أموالهم الواجبة والمُستحَبة، (وكذلك يُنفقون مِمَّا رزقهم اللهُ مِن عِلمٍ أو صِحَّةٍ أو سُلطة في خدمة المسلمين، فيُعَلِّمونَ الناس، ويَسعونَ في قضاء حوائجهم، وغير ذلك).

– الآية ٣٦: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾: أي جعلنا لكم ذبْح الإبل مِن شعائر الدين التي تتقربون بها إلى الله أثناء حَجِّكم (وكذلك الحال في البقر والغنم، وإنما خَصّ سبحانه الإبل لأنها أفضل في الهَدي لكثرة لحمها)، ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي لكم في هذه الإبل منافع (من الأكل وثواب الصدقة) ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي اذكروا اسم الله عند ذبحها، واذبحوها وهي ﴿صَوَافَّ﴾ أي واقفة على ثلاث من قوائمها (على أن تقيِّدوا يدها اليسرى)، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعني: فإذا سقطت جنوبها على الأرض مَيِّتة: فقد أُحِلَّ لكم أكْلها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ ﴿وَأَطْعِمُوا﴾ منها ﴿الْقَانِعَ﴾ – وهو الفقير الذي لم يسأل تعففًا – ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ – وهو الفقير الذي يسأل لحاجته واضطراره –، ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: وهكذا سَخَّرَ الله لكم الإبل – في الركوب والحلب والأكل – لتشكروه سبحانه على هذا التسخير بطاعته وذِكره.

– الآية ٣٧: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ يعني: لن يأخذ اللهُ شيئاً مِن لحوم هذه الذبائح ولا مِن دمائها (لِغِناهُ سبحانه عن ذلك وعدم حاجته إلى ما يَحتاجه البشر)، ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ أي: ولكنه سبحانه يَصعد إليه تقواكم له بامتثال أمْره واجتناب نَهْيه، وأن يكون قصدكم بالذبائح: وَجْه الله وحده، ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي لتُكَبِّروه سبحانه عند الذبح وبعد الصلوات الخمس في أيام التشريق (شُكراً له على هدايته لكم)، ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (وهم الذين يُحسنون عبادتهم لربهم، ويُراقبونه في كل أحوالهم، وكذلك يُحسنون معاملة خَلقه)، فهؤلاء بَشِّرهم أيها الرسول بكل خيرٍ وفلاح في الدنيا والآخرة، (واعلم أن الإحسانُ قد قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم – كما في صحيح مُسلِم –: "أنْ تعبُدَ اللهَ كأنك تراه، فإنْ لم تكن تراهُ، فإنه يَراك").

****

٣. الربع الثالث من سورة الحج

– من الآية ٣٨ إلى الآية ٤١: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يَدفع سبحانه عنهم اعتداء الكفار وكيد الأشرار، فقد ثَبتَ في قراءةٍ أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أي كثير الخيانة لأمانته وعهوده، ﴿كَفُورٍ﴾ أي جَحودٌ بتوحيد ربه، وجحودٌ لنعمه عليه.

♦ وقد كان المسلمون في أول الأمر ممنوعين من قتال الكفار، مأمورين بالصبر على أذاهم، فلمَّا اشتد إيذاء المشركين لهم، وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وأصبح للإسلام قوة: أَذِنَ الله للمسلمين في القتال؛ بسبب الظلم الذي وقع عليهم في أنفسهم وأموالهم وديارهم، كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ (ولذلك أَذِنَ الله لهم في القتال)، ثم طمأنهم سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي قادرٌ على نَصرهم وإذلال عدوِّهم.

♦ ثم أخبر سبحانه عن سبب نَصْره لهؤلاء المهاجرين فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: أي أخرجهم الكفار ظلماً من ديارهم، مع أنهم لم يفعلوا شيئاً ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾: يعني إلا إنهم أسلموا وقالوا: (ربنا الله وحده، ولن نُشرك به شيئاً في عبادته)، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ يعني ولولا ما شَرَعه الله مِن دَفْع الظلم والباطل بالقتال: لَهُزِمَ الحقُّ في كل أُمَّة، ولَخُرِّبَت الأرض، و﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾ وهي مَعابد الرُهبان ﴿وَبِيَعٌ﴾ وهي كنائس النصارى ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ وهي مَعابد اليهود (باللغة العِبرية)، ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: وكذلك ستتهدم مساجد المسلمين التي يَذكرون الله فيها كثيرًا، (وفي الآية دليل على أنه لا يَجوز لنا هَدْم مَعابد اليهود والنصارى)، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ يعني: ومَن اجتهد في نُصرة دين الله وعباده المؤمنين، فإنّ الله ناصره على عَدُوِّه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ لا يَغلبه أحد، ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يَمنعه شيءٌ مِمّا يريد.

♦ وهؤلاء – الذين وعدناهم بنصرنا – هم ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني إذا مَكَّنَّا لهم في البلاد ونصرناهم على عدوِّهم: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أدَّوها في أوقاتها (بشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها)، ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أي أخرَجوا زكاة أموالهم إلى مُستحقيها، ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو كل ما أمَرَ الله به مِن حقوقه وحقوق عباده، (وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة)، ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (وهو كل ما نَهَى الله عنه ورسوله، بشرط ألاَّ يَتسبب النَهي عن المُنكَر في حدوث مُنكَر أكبر منه)، ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: ولله وحده يَرجع مَصير الخلائق يوم القيامة، فيُجازي كُلاًّ بما عمل، (إذاً فاتقوا الله تعالى وراقِبوه في السر والعَلَن، وتوبوا إليه، وتوكلوا عليه، فإنّ الأمر كله في يديه).

– الآية ٤٢، والآية ٤٣، والآية ٤٤: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني: وإذا كَذَّبك قومك – أيها الرسول – فلا تحزن ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ (وهم الذين كَذَّبوا شُعَيبًا عليه السلام)، ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ (أي كَذَّب فرعون وقومه موسى عليه السلام)، فهؤلاء الأقوام قد كَذَّبوا رُسُلهم، ولكنّ رُسُلهم صبروا على تكذيبهم وإيذائهم ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني: فلم أُعاجِل هؤلاء الكافرين بالعقوبة، بل أمْهلتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعذاب، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري على كُفرهم وتكذيبهم؟ (والاستفهام للتقرير) أي كان إنكاري عليهم عظيماً بالعذاب والهلاك، (وفي الآية تصبير للرسول صلى الله عليه وسلم على ما يَلقاهُ من أنواع التكذيب والعِناد والجحود مِن قومه).

- الآية ٤٥: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ يعني: ولقد أهلكنا كثيرًا من القرى الظالمة الكافرة ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي فأصبحت فارغة مِن سُكَّانها، وقد تَهدَّمَتْ مَبانيها، وسقطتْ حِيطانُها وجُدرانها ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي على سُقوفِ بيوتها، ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ يعني: وكم مِن بئرٍ كانوا يَشربون منها فهي الآن مُعطَّلة لا يُستخرَج منها الماء، ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ أي: وكم مِن قصرٍ مرتفع ماتَ أهله وتركوه مُعَطّلاً مثل البئر.

- الآية ٤٦: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ - أي هؤلاء المُكذبون من قريش -، ألم يَمشوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ لِيُشاهدوا آثار المُهلَكين قبلهم ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾: أي فيَتفكروا بعقولهم ليَعتبروا بما حدث لهم؟!، ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾: يعني أو يَسمعوا أخبارهم سماعَ تدبُّر ليَتعظوا؟!، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ يعني: فإنّ العَمَى المُهْلِك ليس عَمَى البصر، ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ولكنّ العَمَى المُهْلِك هو عَمَى البصيرة القلبية عن إدراك الحق والاعتبار، (والمعنى أن الخلل ليس في أبصارهم ولكنّ الخلل في قلوبهم التي أعماها الهوى، وأفسدَتْها الشهوة والتقليد لأهل الجهل والضَلال، ومِن هنا كان على العبد أن يُحافظ على قلبه مِن مُفسدات القلوب أكثر من مُحافظته على عينيه).

- الآية ٤٧: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾: أي يَستعجلك كفار قريش بالعذاب الذي أنذرتَهم به، ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (إذ لا بدَّ من وقوع العذاب، وقد عجَّل لهم بعض العذاب في الدنيا في يوم بدر)، ثم أخبَرَهم سبحانه أنّ الزمن الطويل عندهم هو قصيرٌ عند الله تعالى، فقال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي مِن مُدَّة إمهاله لهم ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي مِن سنوات الدنيا.

- الآية ٤٨: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ يعني: وكثير من القرى كانت ظالمة (بسبب إصرار أهلها على الكفر)، فأمْهَلتهم ولم أعاجلهم بالعقوبة، فاغترّوا بحِلم الله لهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بعذابي في الدنيا، ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ يعني: وإليَّ مَرجعهم بعد هلاكهم، فأُعَذّبهم بما يَستحقون، (إذاً فلا مَعنى لاستعجال هؤلاء المشركين بالعذاب، فإنهم إنْ لم يُعَذَّبوا في الدنيا، فإنّ مَصيرهم إلى الله تعالى، وسوف يُجازيهم بما كانوا يعملون).

- الآية ٤٩، والآية ٥٠، والآية ٥١: ﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول - : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ مِن عذاب الله تعالى لأُخَوّفكم من عقوبة الشرك والمعاصي، ﴿مُبِينٌ﴾ أي أُوَضِّح لكم ما أُرْسِلتُ به إليكم، ﴿فَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وتركوا الشرك والمعاصي ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم (إذ يَسترها الله عليهم، ولا يُعاقبهم عليها في الآخرة)، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ولهم رزقٌ حَسَن لا ينقطع وهو الجنة، ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آَيَاتِنَا﴾ يعني: وأما الذين اجتهدوا في إبعاد الناس عن الإيمان بآياتنا ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ أي ظانّين أنهم يُعجزوننا، وأننا لن نَقدر على أخْذهم بالعذاب: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: يعني أولئك هم أهل النار المُوقدة، إذ يَدخلونها ولا يَخرجونَ منها أبدًا.

- الآية ٥٢، والآية ٥٣، والآية ٥٤: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ - أيها الرسول - ﴿مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ أي قرأ كتاب الله تعالى لقومه، فإذا قرأه: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾: أي ألقى الشيطانُ الوساوسَ والشُكوك للناس أثناء قراءة النبي؛ وذلك ليَصدَّهم عن اتّباع ما يَقرؤه، ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي لكنّ الله يُبطل كيد الشيطان ويُزيل وساوسه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آَيَاتِهِ﴾ أي يُثبت آياته الواضحات، فلا تقبل الزيادة ولا النقصان، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء (ومِن ذلك عِلمُه بوساوس الشيطان)، ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل أفعاله (وهذه سُنَّته في أنبيائه ورُسُله، ليَتميّز المؤمنون مِن غيرهم).

♦ وقد كان هذا الفِعل مِنَ الشيطان ﴿لِيَجْعَلَ﴾ اللهُ ﴿مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ من الوساوس والشكوك ﴿فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق (وهم المنافقون وضِعاف الإيمان) ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ (وهم المشركين الذين لا تؤثِّرُ فيهم المواعظ)، (واعلم أنّ الفتنة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ هي الزيادة في الكفر والضلال والبعد عن الحق)، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ جميعاً ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي في عداوة شديدة لله ورسوله، ومُخالَفة بعيدة عن الحق والصواب.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: ولكي يَعلم أهل العلم – الذين يُفرِّقون بعِلمهم بين الحق والباطل – أن القرآن الكريم هو الحق النازل من عند الله تعالى، لا شك فيه، ولا سبيلَ للشيطان إليه، ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي فيزداد إيمانهم بالقرآن، وتخشع له قلوبهم وتطمئن، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي سوف يُوَفِّقهم سبحانه إلى الثبات على الإسلام، لِيُنقذهم به من النار، (وذلك بحمايتهم من الشيطان، وإعانتهم على طاعة الرحمن).

– الآية ٥٥، والآية ٥٦، والآية ٥٧: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي لا يَزالون في شَكٍّ من القرآن، ويَظَلُّونَ على ذلك ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: أي حتى تأتيهم القيامة فجأةً، وهُم على تكذيبهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أي عذابُ يومٍ لا خيرَ فيه، وهو يوم بدر – على الراجح – حينَ هَزَمهم المسلمون وقتلوا زعماءهم، وأسَرُوا كثيرًا منهم.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يَقضي بين المؤمنين والكافرين: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يُدخِلهم سبحانه ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الواضحة: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي لهم عذابٌ يُذِلُّهم ويُهينهم في جهنم (فهو عذابٌ للجسد والنفس معاً) (نسأل الله العافية).

– الآية ٥٨، والآية ٥٩: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي خَرَجوا من ديارهم طلبًا لرضا ربهم ونُصرة دينه ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ أي قتلهم المشركون، ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ مَوتةً (طبيعية) بانتهاء آجالهم أثناء الهجرة: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ (إذ تكون أرواحهم بعد موتهم في أجواف طيرٍ خُضر تأكل من الجنة حيث شاءت)، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي هو سبحانه خير مَن أعطى، و﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ وهو الجنة، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بمَن يَخرج في سبيله، ومَن يَخرج طلبًا للدنيا، ﴿حَلِيمٌ﴾ بمن عصاه، فلا يعاجله بالعقوبة.

– الآية ٦٠: ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك الذي قصصناه عليك، ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ يعني: ومَن اعتُدِيَ عليه وظُلِم، فقد أُذِن له أن يَرُدّ الاعتداء بمِثله، ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ يعني: فإذا عاد المعتدي إلى إيذاء المظلوم: ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ أي فإنّ الله سيَنصر المظلوم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي يعفو عن الذين يعفون عن الناس، ويَغفر ذنوبهم (وفي هذا إشارة إلى ترغيب المؤمن في العفو عن أخيه إذا ظَلَمه، فإنّ العفو خيرٌ له من المُعاقَبة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ).

– الآية ٦١: ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك النصر على المظلوم كائنٌ لا مَحالة ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ أي بسبب أنّ اللهَ قادرٌ على ما يشاء، ومِن قدرته أنه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أي يُدخِل ما يَنقص من ساعات الليل في ساعات النهار، ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي يُدخِل ما نَقَصَ من ساعات النهار في ساعات الليل، فيَطولُ هذا ويَقصُر ذاك، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكل صوت، ﴿بَصِيرٌ﴾ بكل فِعل، لا يَخفى عليه شيء، (فلذلك يَنصر سبحانه مَن يَعلم أنه يَستحق النصر).

– الآية ٦٢: ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك المذكور مِن آيات قدرة الله تعالى، لتُوقِنوا ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي الذي يَستحق العبادة وحده ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ يعني: ولتُوقِنوا بأنّ ما يَعبده المشركون من دون الله تعالى هو الباطل الذي لا يَنفع ولا يضرُّ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاتِهِ وقهره على جميع مخلوقاتِه، ﴿الْكَبِيرُ﴾ في ذاته وصفاته (فهو أكبر وأعظم من كلِّ شيء).

****

٤. الربع الأخير من سورة الحج

– الآية ٦٣، والآية ٦٤: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ – أيها الرسول – ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي تُصبح خَضراء بما يَنبُت فيها من النبات بسبب هذا المطر؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بعباده (حيثُ أخرج لهم هذا النبات المتنوع، الذي يأكلون منه هم وأنعامهم)، ﴿خَبِيرٌ﴾ بمصالحهم ومنافعهم، وهو سبحانه الذي ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خَلْقًا ومُلْكًا وتدبيرًا وإحاطة، فالكلّ مُحتاجٌ إلى تدبيره وإنعامه، (وكُلُّ ما تعبدونه مع الله: هو مِلكٌ لله تعالى فقيرٌ إليه)، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ الذي لا يَحتاج إلى شيء ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي الذي يَستحق الحمد والثناء في كل حال.

– الآية ٦٥: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ (كالبهائم والزروع وغير ذلك، لرُكوبكم وطعامكم وجميع مَنافعكم)؟ ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: وسَخَّرَ لكم السفن لتجري في البحر بقدرته، وبأمْرِهِ للبحر أن يَحملها رغم ثِقَلها، لتَحملكم مع أمتعتكم إلى حيث تشاؤون من البلاد والأماكن، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: وهو سبحانه الذي يُمسك السماء حتى لا تقع على الأرض – فيَهلك مَن عليها – إلا إذا أَذِنَ سبحانه لها بذلك، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيثُ رَحِمهم بتسخير هذه الأشياء لهم، (إذاً فليعبدوه وحده ولا يُشركوا به).

– الآية ٦٦: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أيها الناس (بأنْ أَوْجدكم من العدم)، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انتهاء أعماركم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بعد الموت ليُحاسبكم على أعمالكم، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي جَحودٌ بآيات ربه الدالة على قدرته ووحدانيته، جحودٌ بنعمه عليه.

– الآية ٦٧، والآية ٦٨، والآية ٦٩، والآية ٧٠: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية ﴿جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي جعلنا لهم عباداتٍ أمرناهم بها فعملوا بها، فلما جاءت شريعة محمد صلى الله عليه وسلم وقامت الأدلة والبراهين على صحتها، وَجَبَ على الجميع أن يَتلقوا ما جاء به بالقبول والتسليم وترْك الاعتراض، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾: أي لا تَتجادل مع مُشركي قريش – أيها الرسول – في شريعتك وما أمَرَك الله به من الذبائح والعبادات، (وذلك لأن المشركين جادلوه في ذبائح الهَدْي أيام التشريق، واعترضوا على تحريم المَيْتة، فأمَره الله تعالى أن يُعرض عن جدالهم لجَهْلهم)، وقال له: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي ادعُ إلى توحيد ربك وإخلاص العبادة له واتِّباع أمْره، ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني إنك على دينٍ قويم لا اعوجاجَ فيه، ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ﴾ يعني: وإن أصرُّوا على مجادلتك بالباطل: ﴿فَقُلِ﴾ لهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: هو سبحانه عليمٌ بأفعالكم ونيّاتكم، ومُجازيكم عليها يوم القيامة، (ولا تجادلهم، فإنهم مُعاندونَ متكبرون).

♦ وقال الله لرسوله: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي مِن أمْر الدين، فمَن وافَقَ الطريق المستقيم، فهو من أهل النعيم، ومَن ضَلَّ عنه، فهو من أهل الجحيم، ومِن تمام عدله سبحانه، أن يكون حُكمه بعِلم، فلذلك ذَكَرَ إحاطة عِلمه بكل شيء قائلاً لرسوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (ومِن ذلك عِلمه سبحانه بجدالهم لك؟) ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ العلم مُثبَت ﴿فِي كِتَابٍ﴾ (وهو اللوح المحفوظ)، ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي كتابة العلم وحِفظه والحُكم بين المختلفين ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي سهلٌ عليه سبحانه لأنه على كل شيء قدير، (وفي هذه الآيات إرشادٌ إلى حُسن الرد على مَن جادَلَ جَهلاً وعِناداً واستكبارًا).

- الآية ٧١: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: أي يَعبدون آلهةً لم يُنَزِّل الله بشأنها حُجَّةً تدل على أنها تستحق العبادة، أو أنها تُقَرِّبهم إليه كما يَزعمون ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ في هذا الافتراء إلا الهوى واتِّباع الآباء بغير دليل ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾: أي ليس للمشركين ناصرٌ ينصرهم، أو يَدفع عنهم عذاب الله تعالى في الدنيا ولا في الآخرة.

- الآية ٧٢: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾: يعني إذا تتلى آيات القرآن الواضحة على هؤلاء المشركين: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾: أي ترى الكَراهية ظاهرةً على وجوههم، حتى إنهم ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾: أي يَكادون يَبطشون بالمؤمنين الذين يَدعونهم إلى الله تعالى، ويَتلون عليهم آياته، ﴿قُلْ﴾ لهم – أيها الرسول –: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمْ﴾؟ يعني: هل أخبركم بما هو أشد كَراهيةً إليكم مِن سَماع الحق ورؤية الداعينَ إليه؟ إنها ﴿النَّارُ﴾ التي ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي أعدَّها الله للكافرين في الآخرة ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

- الآية ٧٣، والآية ٧٤: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً بَيَّنَ فيه عَجْز ما يُعبَد مِن دونه ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أيها الناس وتَدبّروه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ يعني لن تَقدر هذه الآلهة المزعومة – ولو اجتمعتْ مع بعضها – على خَلْق ذبابة واحدة، فكيف بخلق ما هو أكبر؟!، ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا﴾ يعني: إنْ يأخذ الذباب شيئاً من العِطر أو الطعام الذي يَضعونه لآلهتهم: ﴿لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: لا تَقدر هذه الآلهة المزعومة أن تَسترد ما يأخذه الذباب منها، فهل بعد ذلك عَجْز؟!، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾ وهو المعبود من دون الله، ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ أي: وضَعُفَ المطلوب، وهو الذباب.

♦ وقد قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ أي ضَعُفَ العابد والمعبود (وهُم المشركون وأصنامهم)، واللهُ أعلم.

♦ فهؤلاء المشركون ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: أي لم يُعَظِّموا اللهَ حق تعظيمه، إذ جعلوا له شركاء لا تنفع ولا تضر، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: أي هو سبحانه القوي الذي خَلَقَ كل شيء وحده، العزيز الذي لا يَمنعه شيءٌ مِمّا أراد (فكيف يكون له شركاء؟!).

- الآية ٧٥، والآية ٧٦: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي﴾ أي يَختار ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ لِيُبَلِّغوا الأنبياء بالوحي، ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي يَختار من الناس رُسُلا لتبليغ رسالاته إلى خَلقه، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال العباد ﴿بَصِيرٌ﴾ بنيَّاتهم وأفعالهم، ولذلك يَختار مِنهم مَن يَعلمُ استقامته قولاً وفِعلاً، وهذا مِثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، وهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أي يَعلم ما يُستَقبَل مِن أمْر هؤلاء الرُسُل، وكذلك يَعلم ما مَضى مِن أفعالهم، فلذلك يَختار سبحانه مَن يشاء منهم لرسالاته، (إذاً فكيف يَصِحّ أن يَعترض المشركون على اختيار الله لمحمد صلى الله عليه وسلم؟) ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: وإلى اللهِ وحده يَرجع مَصير الخلائق يوم القيامة، فيُجازي كُلاًّ بما عمل.

- الآية ٧٧، والآية ٧٨: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي أقيموا صلاتكم، (وإنما خَصّ الركوع والسجود من بين أركان الصلاة لأنهما أشرف أجزائها، وأدَلّ على خضوع العبد لربّه وذُلِّه له)، ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وحده لا شريك له، وأطيعوا أمْره واجتنبوا نَهْيه (مُعَظِّمينَ له غاية التعظيم، مُتذلِّلينَ إليه غاية الذل، مُحِبِّينَ له غاية الحب)، ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ (وهو كل أمْرٍ نافع يُحِبُّهُ اللهُ ويَرضاه) ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني: لكي تفوزوا في الدنيا والآخرة، ﴿وَجَاهِدُوا فِي

اللَّهِ﴾ أي في سبيل إرضاءه تعالى ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي الجهاد الحق الذي أمَرَكم الله به، وهو جهاد النفس والشيطان، وجهاد الكفار المُعتدين بالنفس والمال (مُخلِصينَ النية لله تعالى)، ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾: أي اختاركم سبحانه لحَمْل هذا الدين وتبليغه إلى جميع الناس، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾: أي لم يَجعل في شريعتكم تضييقاً ولا تشديداً (كما كان في بعض الأمم قبلكم)، بل وَسَّعَ عليكم في تكاليفها وأحكامها، فجعل التوبة لكل ذنب، وجعل الكفارة لبعض الذنوب، ورَخَّصَ للمسافر والمريض في قصر الصلاة وقضاء الصيام، وجعل التيمم لمن لم يَجد الماء أو عَجَزَ عن استعماله.

♦ فالزَموا ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ (وهي عبادة الله وحده لا شريك له)، فـ ﴿هُوَ﴾ سبحانه الذي ﴿سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي في الكتب المُنزَّلة السابقة ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: وفي هذا القرآن أيضاً سَمَّاكم المسلمين ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي شاهدًا على أنه قد بَلَّغكم رسالة ربه، وشاهداً على أنكم قد آمنتم به ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي شهداء على الأمم السابقة أنّ رُسُلهم قد بَلَّغتهم رسالة ربهم (كما أخبركم الله في كتابه)، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وشروطها، في خشوعٍ واطمئنان (شُكراً لله تعالى على هذه النعمة)، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ لمُستحقيها، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي الجؤوا إليه سبحانه، واحتموا به من شر أعدائكم ومن شر النفس والشيطان، فـ ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي هو سيِّدكم ومُتولِّي أمْركم فاعتمدوا عليه، ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ أي فهو سبحانه نعم المُعين والحافظ لمن اعتصم به، ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ لمن طلب نَصْره.

♦ ولعلنا نلاحظ هنا أن الله تعالى قد جمع في هذه الآية بين أهم سببين من أسباب الاستمرار على التوبة النصوح، ألاَ وهُما: (المجاهدة والاعتصام)، بمعنى: (مجاهدة النفس والشيطان، ومُخالفتهما، والحذر مِن مَداخلهما، وإغلاق الباب على وَساوسهما)، وكذلك الاعتصام بالله تعالى – بصِدق – مِن شرِّهما، فقال تعالى في أول الآية : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾، وقال في آخر الآية: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

****